منهج المبرّد في دراسته للغة الشعر

الدكتورة وهيبة بن حدو – الجزائر

الملخص:

يعدّ المبرّد من اللّغويّين الذين أثروا مكتبتنا العربية بالعديد من المؤلفـات النحوية و الأدبية، ساهم فيها بدراسة اللغة العربية، و أثّر في الحركة الفكرية فعدّ آخر أئمة المدرسة البصرية. فقد ألف كتاب المقتضب في النحو، كما كان كتابه الكامل حاملا لمتفرقات اشتملت على قضايا نحوية و صرفية و بلاغية و نقدية جمع فيه نصوصا قيّمة استفاد منها من جاء بعده من علماء البيان والتفسير وغيرهم.

و قد جمع في مؤلفاته بين منهجين هما: المنهج النحوي الذي التزم فيـه السماع والقياس والتعليل، والمنهج النقدي البلاغي الذي شاع في عصره بسبب موجة الاعتزال.

Abstract :

« El Mobarid » is considered as one from the linguists who enrich our Arabic Library with such numerous literary as well as grammatical writings in which he contributed to the Arabic Language Study effecting the Thought Movement.Thereby, he was considered as the last Imam of the Basra School ; he wrote « El Moktadib fi nahw »as his book brought miscellaneous points studying grammatical, morphological, rhetorical and critical issues as well collecting precious interesting texts.His writings were characterized by two methodologies : the Grammatical Methodology in which he depended on Hearing , Measuring and Reasoning in addition to the Rhetorical Critical Methodology which was well known during his period because of the Retirement Wave.

البحث:

يزخر تاريخنا الإسلامي بشخصيات أثْرَت مكتبتنا العربية وبذلت جهدا خصبا في وضع أصول النحو العربي وقواعده وجمع تراثنا اللّغوي، ومن بينها شخصية محمد ين يزيد الثمالي الأزدي البصري المعروف بالمبرّد والمتوفى سنة 286هـ.

وإذا كان المبرّد آخر أئمة المدرسة البصرية لتأثره الكبير بسيبويه والمازني ولتأليفه كتاب المقتضب، إلاّ أنّ إسهاماته في البلاغة والنقد كان لها شأن كبير خاصة إذا عرفنا أنّه تتلمذ على يد الجاحظ (225هـ) وعاصر ابن قتيبة (276هـ.(

ومن إسهاماته البلاغية المعروف بها دراسته للتشبيه حيث أنّه أوّل من خصص له بابا مستقلا في الكامل جمع فيه نصوصا قيّمة استفاد منها من جاء بعده من علماء البيان والتفسير وغيرهم.

هذا التنوّع في المعارف كان سببه انتقال المبرّد إلى بغداد وحياته فيها بعد الثلث الأوّل من القرن الثالث للهجرة(1)، ممّا جعله يعيش في وسط ثقافي متسع الآفاق، فهو قادم من البصرة حاملا النحو و ممثلا لمنهج البصريين. و في بغداد و سامراء التقى بالأدباء سواء في حلقات درسه أو في مجالس الخلفاء والأمراء والعلماء، وفي وسطهم صراع حول قضايا الأدب والنقد وما كان يدور بين القديم والمحدث ثمّ ما دار حول المحدثين من النقد كما كان حول أبي نواس ومسلم بن الوليد وأبي تمام والبحتري وغيرهم(2.(

كان هذا الصراع يثير في نفس المبرّد إحساس الشاعر وما عهده في نظمه وتجربته، لكن الدرس النحوي واللّغوي الذي غلب عليه لم يطفئ ذلك الإحساس .ففي نفسه وفكره تنازع منهجان:

أولا: المنهج النحوي:

كان يفرض عليه التزامه بأسسه وقواعده في السماع و القياس و التعليل.

أ) السماع : لقد اعتمد المبرّد – كغيره من علماء عصره– في تأصيله قواعد النحو ووضع أسسه على السّماع؛ فالسّماع عندهم يعني النّقل المباشر عن القراء والرّواة، وعلماء اللغة العرب الذين يوثق بفصاحتهم، وكان المبرّد ينقل شواهده عن الأعراب بطريقتين:

أ –عن طريق شيوخه الذين نقل عنهم اللغة: كالجرمي، والمازني، و السّجستاني، فأحيانا كان يصرّح باسم الشّيخ الذي ينقل عنه(3) ، وأحيانا لم يكن يصرّح بذلك(4. (

أمّا الطريقة الثانية فكانت طريقة مشافهة الأعراب مباشرة أو السّماع من شفاههم، وقد ساعده الجوّ الثقافي

البصري على لقاء الأعراب وسماع القصائد والأبيات، واستنباط القواعد منها وبناء الأصول النحويّة وتثبيتها، فكان يقول: «وممَّا يؤكد ذلك السماع قول الأصمعي، فيما حدّث به علماؤنا إنّ أعرابيا سمع كلام خلف الأحمر، فقال: يا أحمر؛ إنّ عندك لأساوى فقلب الياء واوا، وأخرجه مُخرَجَ صحراء وصحارى فكلّ مقلوب فله لفظ. »(5 (اعتنى المبرّد بالسماع عناية بالغة ومضى في إثر أستاذه المازني لا يرتضي بعض القراءات الشاذة ما دامت لا تطّرد مع قواعده النحوية، وتشدّد مثل سالفيه في قبول الرواية عند العرب، وكان يطعن في رواية بعض الأشعار المأثورة ما دامت لا تستقيم مع مقاييسه ، حتى ولو وردت عند سيبويه.

من بين الشواهد على ذلك أنّ سيبويه استشهد على تسكين المضارع في الضرورة الشعرية(6) بقول امرئ القيس(7:):

فَاليَوْمَ اشْرَبْ غَيْرَ مُسْتَحْقَبِ إِثْماً مِنَ اللهِ وَلاَ وَاغِلَ

وقال المبرّد : « ليست هذه هي الرواية الصحيحة للبيت إنّما روايته الصحيحة في مطلعه هي "فَاليَوْمَ فاشْرَبْ" وإذن يكون الفعل طبيعيا لأنّه فعل أمر »(8 .(

ب) القياس: يُعدّ القياس من أدلّة النّحو الأساسيّة، و لا بدّ من الإشارة إلى إسناد القياس إلى السّماع إذ كيف يُقاس على ما لم يسمع. لذا وجدنا المبرّد يهتمّ بالقياس، وتدل أقواله فيه على أنّه أوجب في المقيس عليه الكثرة، وأنّه لا يُؤخذ بالقليل، ولا يقاس على الشّاذّ، وهذا ظاهر في قوله » :القياس المطّرد لا تعترض عليه الرّواية الضّعيفة»(9)، وقوله أيضا: «إذا جعلتَ النّوادر والشّواذ غرضك واعتمدت عليها في مقاييسك كثرت زلاتك»(10 (

ونشير إلى أنّ المبرّد قد عمق اتّجاه القياس، وأنّ المغالاة فيه قد تُعْزَى إليه، فقد اهتمّ به اهتماما بالغًا، وكانت لبَصرِيَّته دور بارز في أَقْيِسَتِهِ في مواضعَ كثيرة، و كان يقيس على كثير من كلام العرب، قال: "« واعلم أنّ القياس وأكثر كلام العرب أن تقول... »(11) ، إضافة إلى أن قياسه على كلام العرب في القرن الثّالث يجعله يختلف مع إمام النّحاة سيبويه.

و المبرّد كان يقيس أحيانا على القليل، وسيبويه يقيس على الكثير، ويمكن أن نجعل قياس المبرّد هنا توسّعا، ولكن سرعان ما نجده يعلّل ويسوّغ، ولا يردّ ما خرج عن القياس، وخير مثال على ذلك ما يقع في النسب بزيادة لما فيه من المعنى الزّائد على معنى النّسب، كقوله في: « طويل اللّحية: لحياني، وطويل الجمّة: جمّاني، وفي عريض الرقبة: رَقَبَانِي، وشَعَرَانِي لكثير الشعر».(12 (

فإن نُسب إليها رجل قال:« جُمِيّ وشَعَرِيّ ورَقَبِيّ»، وهناك أشياء تنسب إليها على غير قياس للّبس مرّةً،

وللاستثقال أخرى، وللعلاقة مرّة ثالثة، والنّسب إليها على القياس، وهو الباب «فمن تلك الأشياء قولهم في النّسب إلى زَبِينَة: زَبَّانِي، وإنّما الوجه: زَبَنِي، كقولك في حَنِيفَة: حَنَفِيّ، وفي رَبِيعَة: رَبَعِيّ»(13.(وقد يذهب المبرّد إلى أبعد من هذا فيخالف القياس البصري وكلام العرب، (14)وخير مثال على ذلك إجازته الجمع بين (فاعل نِعْمَ وبِئْسَ وتمييزه (كقولك: نِعْم الرَّجُلُ رَجُلاً زَيْدُ، فقولك (رَجُلاً) لأنّه مستغني عنه بذكر (الرّجل) أوّلا.

واستشهد بقول الشّاعر:

تَزَوَّدْ مِثْلَ زَادِ أَبِيكَ فِينَا فَنِعْمَ الزَّادُ زَادُ أَبِيكَ زَادَا(15(

وقد شرح ابن يعيش مذهب سيبويه وبيّن عِلّته، كما شرح مذهب المبرّد، فقال: «منع سيبويه الجمع بين فاعل (نعم) وتمييزها واحتجّ في ذلك بأنّ المقصود من المنصوب الدّلالة على الجنس وأحدهما كافٍ عن الآخر»(16)، وحجّة المبرّد في الجواز الغُلوّ في البيان والتّوكيد، ويرى الشّيخ عضيمة أنّ الأوّل أظهر، ذلك لأنّ بيت جرير أنشده المبرّد شاهدًا على ما ادّعى من جواز ذلك ، فإنّه رفع الزّاد المعروف بالألف واللاّم بأنّه فاعل (نعم) (وزاد أبيك) هو المخصوص بالمدح ، وزادًا تمييز وتفسير.(17 (كل ذلك حدّد منهج المبرّد وما عرف به في التزامه القياس مذهبا وتمسكه بمقولة شيخه المازني « ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب »(18 .(ثمّ التزامه بالأصول في ردّ ما خرج على القياس إليها، فكان موقفه من الضرورة الشعرية يأخذ اتجاهين:

أحدهما: قبول الضرورة الشعرية التي لها أصل في الاستعمال: لقد كانت للمبرّد مسلمات في كتابيه (المقتضب) و(الكامل) تحكم مواقفه من الضرورة وما خرج على القياس منها: »إنّ السماع الصحيح والقياس المطرد لا تعترض عليه الرواية الضعيفة»(19.(«الضرورة تردّ الأشياء إلى أصولها، فلا يجوز الخروج على الأصول، إنّما يجوز الرجوع إليها في الضرورة»(20(»الضرورة لا تجوّز اللّحن »(21.(

فقواعد الاستعمال عنده قسمان:

1)المقيسة المطردة القياس وهي التي تتمثل فيها صحة الاستعمال وفق الأكثر والأعم من كلام العرب.

2)الأصل الذي عدل عنه إلى الاستعمال المقيس بقاعدة فرعية، فالأصل في الأسماء أن تنصرف لكنها قد تمنع من الصرف بعلة فيعدل بها عن الصرف، ولكن الشعر إذا اضطر وصرف الممنوع من الصرف جاز له لأنّه رجع إلى الأصل. أمّا إذا اضطر إلى ترك صرف ما ينصرف فلم يجز له ذلك « لأنّ الضرورة لا تجوّز اللحن وإنّما يجوز

فيها أن ترد الشيء إلى ما كان له قبل دخوله العلة، وكذا جواز فك إدغام المدغم وجر المنقوص بالكسر وغير ذلك(22 .(فهو أجاز جوازا مطلقا الرجوع إلى الأصل وإن لم يرد به سماع، وهذا من وجوه خلافه مع النحويين.

كان المبرّد حين يحلّل النص ينشد صحته وسلامة تركيبه وفق هذين القسمين من قواعد الاستعمال وهو ينظر في ذلك إلى شيئين:

أ- الوضوح وعدم اللبس في أداء المعنى.

ب- حسن النظم والتركيب ليأتي النص على خير ما يريد له الفنّ والإبداع، فإذا أمن اللبس جاز ما لا يجوز من الصيغ والأساليب.

ثانيهما: تخطئة الاستعمال فيما خرج على الأصول: لقد دفع المنهج القياسي بالمبرّد إلى الاعتراض على الضرورات التي يخرج فيها أصحابها على الأصول وكان له في ذلك موقفين:

أ- التخطئة والردّ لمخالفتها الأصول.

ب- تغيير رواية الشعر الذي اشتمل على تلك الظواهر التي عدّها لحنا.

إنّ هذا التصرّف في رواية الشعر لم يختصّ به المبرّد، إنّما كان لدى من سبقه أحيانا. كان لدى خلف الأحمر في تغييره رواية بيت لجرير إذ قرأه الأصمعي عليه زاعما أنّ جريرا كان قليل التنقيح لشعره(23.(لقد أثار تغيير المبرّد في رواية الشعر الخلاف و الانتقاد، على الرغم من أنّ ابن جنّي كان استمرارا لمذهب القياس عند المبرّد، ويرى إجازة القول عند اضطرار الشاعر بما يبيحه القياس وإن لم يرد به سماع(24). و وصف المبرّد في تغييره رواية أبيات جاءت في الكتاب على أنّها من الضرورات بأنّه اعتراض على العرب لا على صاحب الكتاب «لأنّه حكاه كما سمع»(25.(

وقال فيه أيضا: « واعتراض أبي العباس في هذا الموضع إنّما هو ردّ للرواية وتحكم على السماع بالشهرة »(26.(

وقال فيه ابن ولاد : « فهذا رجل يجعل كلامه في النحو أصلا وكلام العرب فرعا فاستجاز أن يخطئها إذا تكلمت بفرع يخالف أصله »(27.(

و قال علي بن حمزة في التنبيهات « لو تشاغل أبو العباس بملح الأشعار ونتف الأخبار وما يعرفه من النحو لكان خيرا له من القطع على كلام العرب وأن يقول ليس كذا من كلامهم فلهذا رجال غيره ويا ليتهم أيضا يسلمون »(28.(

ج) التعليل: لقد كان المبرّد من المقدَّمين في التعليل الصحيح، إذْ برع في التعليل ومثّله خيْر تمثيل وكان له فيه باع طويل، فقد أخذ بداياته عن سابقيه وفاق فيه بعد ذلك لاحقيه ، إذْ عرف عصره ظهوراً قوياً لهذا المنهج على يد

المبرّد، وذلك بشهادات أكبر النحاة أنفسهم، فهذا ابن جني يصفه بأنه » :يُعدُّ جيلًا في العلم، وإليه أفضت مقالات أصحابنا أي: البصريين، وهو الذي نقلها، وقررها، وأجرى الفروع، والعلل، والمقاييس عليها » (29 (فالتعليل إذاً من الخصائص البارزة في منهج المبرّد بل قد نجد لديه عدة تعليلات للمسألة الواحدة، وذلك قصد تثبيت رأيه وترسيخ مذهبه النحوي، خصوصاً إذا تعلّق الأمر ببعض القضايا التي يدعمها بالرواية وكثرة الشواهد، وتارة بالقياس. وما أكثر ما يستعمل عبارة (لأنّ: التعليلية) و عبارة)أيْ :التفسيرية). كما لا تخلو تعليلاته من الأمثلة التطبيقية من القرآن والشعر، ممّا يزيد حجته قوّةً و بياناً فها هو يقول مثلاً: «...اعْلَم أن المصادر تلحقها الْمِيم فِي أَولهَا زَائِدَة لأنّ الْمصدر مفعول فَإِذا كَانَ كَذَلِك جرى مجْرى الْمصدر الَّذِي لَا مِيم فِيهِ فِي الإعمال وَغَيره. وَ ذَلِكَ قَوْلك: ضَربته مضربا أَي ضربا وغزوته غزواً ومغزى وشتمته شتما ومشتماُ وَتقول: يَا عَمْرو مشتما زيد؛ فَإِن كَانَ الْمصدر لفعل على أَكثر من ثَلَاثَة كَانَ على مِثَال الْمَفْعُول لأنّ الْمصدر مفعول. وَكَذَلِكَ إِن بنيت من الْفِعْل اسْما لمِكَان أَو زمَان كَانَ كل وَاحِد مِنْهُمَا على مِثَال الْمَفْعُول لأنّ الزَّمَان وَالْمَكَان مفعول فيهمَا، وَذَلِكَ قَوْلك فِي المصادر أدخلته مدخلًا كَمَا قَالَ عز وَجل ﴿ أنزلني منزلا مُبَارَكًا﴾ [المؤمنون/29] و ﴿باسمِ اللهِ مُجْريهَا ومُرْسَاها﴾ [هود/41 [وَكَذَلِكَ سرحته مسرحا وَهَذَا مسرحنا، أَي فِي مَوضِع تسريحنا وَهَذَا مقامنا لأنّك تُرِيدُ بِهِ الْمصدر وَالْمَكَان من أَقمت وعَلى ذَلِك قَالَ الله عز وَجل ﴿إِنَّهَا ساءت مُسْتَقرًّا ومقاما﴾ [الفرقان/66] لِأَنَّهَا من أَقمت وَقَالَ ﴿ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَام لكم﴾ [الأحزاب/13 [لأنّها من قُمْت مَوضِع قيام وَمن قَرَأَ (لاَ مقَام) إِنَّمَا يُرِيد لاَ إِقَامَة. قَالَ الشَّاعِر :

أَلَمْ تَعلَمْ مُسَرِّحي القَوَافي ** فَلا عيًّا بِهِنَّ وَلَا اجتلابا

أَي تسريحي. وَقَالَ آخر:

وَمَا هيَ إِلَّا فِي إزارٍ وعِلْقَةٍ ** مُغارَ ابْن هُمامٍ على حَيِّ خَثْعَما

أَي وَقت إغارة ابْن همام وَهَذَا أوضح من أَن يكثر فِيهِ الِاحْتِجَاج لأنّ الْمصدر هُوَ الْمَفْعُول الصَّحِيح »(30 (و للمبرد في النحو آراء مستفيضة ومتعددة تعج بها كتب النحو، تنمّ عن عقلية واعية، وفطنة مُبهِرة جعلته بلا منازع زعيم النحويين، وشيخ أهل النحو.

ثانيا: المنهج النقدي البلاغي:

تداخل هذا المنهج مع منهجه السابق، وكان وراءه عدّة مؤثرات منها أثر موجه الاعتزال في عصره وأثر شيخه الجاحظ واتجاهه في نقد الشعر وموقفه التوفيقي من الشعر قديمه وحديثه ومن قضايا بلاغية كان يبثها في كتبه. فقد كان الجاحظ أشجع من وقف بين القديم والحديث– كما وصفه إحسان عباس –في رأيه بأبي نواس وتفصيله

أبياتا له على شعر المهلهل في الشاعرية(31.(

وقال ابن قتيبة من بعده:. «.. ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختارا له سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقديمه وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره بل نظرت بعين العدل على الفريقين، وأعطيت كلا حظه، ووفرت عليه حقه» (32.(

وقوله هذا رد فعل لما شاع بين علمائه ومن تلقى عنهم، حيث كانوا يستجيدون الشعر السخيف لتقدم قائله، ويضعونه في متخيرهم، ويرذلون الشعر الرصين ولا عيب فيه عندهم إلا أنه قيل في زمانهم وأنهم رأوا قائله، ثم قال ابن قتيبة» :ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن و لا اختص به قوما دون قوم بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده »(33.(

كل هذه الآراء كانت وراء اندفاع المبرّد للإطلاع على شعر المحدثين إلى جانب الشعر القديم الذي كان أحد مصادر الدرس اللغوي إلى جانب القرآن الكريم وكلام العرب. و اطّلاعه على الشعر المحدث لتأثره بالعصر ومراعاته كان يدفعه إليه أيضا صلته بمجالس الأدب في بغداد وما كان يدور فيها من حديث وجدل حول شعر المحدثين و اختلاف النظر إليه ثم صلته الخاصة بابن المعتز و البحتري و ابن معذل و غيرهم من الشعراء المحدثين أو ممن مال إلى الشعر المحدث ورواه.

وكان ابن المعتز ممن ينحاز لأبي تمام وشعر المحدثين مخالفا شيخه ابن الأعرابي المتعصب للقديم. وقد روى الصولي في كتابه (نوادر) أخبار أبي تمام وأخبار البحتري نوادر في ذلك، وفوق كل ذلك المنافسة القائمة بين المبرد وثعلب شيخ الكوفيين، وهو شيخ عصره في اللغة والنحو كما وصفه الصولي(34(، فأن يظهر المبرد في هذا الجو بمظهر غير العارف بشعر شاعر كبير كأبي تمام أو البحتري أو غيرهما من المحدثين في موقف الرأي والجدل، كل ذلك دفعه إلى الإطلاع على شعر المحدثين، و كان إطلاعه اطلاع عالم دافعه الإنصاف في الحكم، و وراء كل ذلك تلك النزعة القديمة لديه إلى الشعر وتجربته التي لم تمت عنده، وإنما عبرت عن نفسها في مجال البحث والدرس والتأليف بعد أن انسحبت من مجال الإبداع الشعري فاتجهت نحو الاعتراف بإبداع الشعراء.

وقد كان المبرد من كبار علماء القرن الثالث، وكانت حلقات درسه عامرة بالمتلقين لعلوم العربية، وكان الشعر واحدا من مصادر النحو المهمة، لكن الشعر الذي اتخذ مصدرا للتقعيد قد حدد زمانه و مكانه إلى منتصف القرن الثاني للهجرة في مواطن الفصاحة ولم يتخذ شعر ما بعد هذا التاريخ مجالا للاستشهاد النحوي بدءا من بشار بن برد ومن معه ومن بعده من الشعراء المحدثين المولودين في العصر العباسي.

حاول المبرد الاتصال بالشعر المحدث بما لا يؤثر في موقفه النحوي في الاستشهاد بالشعر فعني به من حيث المعاني

المولدة والصور البديعية والإشارات والرصف، وكان موقفه منه موقفا توفيقيا جامعا بين القديم والحديث كأستاذه الجاحظ وصديقه ابن قتيبة، ولقد عرف هذا القرن بالنظرة التوفيقية المنصفة، لاتصاف العلماء فيه بالتأمل النزيه والتروي السديد، ولما توفرت لهم من استعداد وثقافة استفادوا منها أيما فائدة فراحوا يعطون لكل حقه بغير اعتبار العامل الزمني، وهذا يخالف رأي صاحب العقد الفريد عندما صرح بأن الصلة بين المبرّد والشعر المحدث لا تتجاوز مجال العطف، وأن المبرد كان مغلوبا بروح العصر مساقا بقوتها، وأنه لم يعتمد ذوقا متميزا في الاختيار وإنما كان يتستر وراء الموضوع(35.(

واهتمام المبرد بالشعر المحدث كان في مجالين:

أولهما: تدريسه إياه لطلبته، فلقد اتخذ المبرد شعر المحدثين أصلا من أصول ما يدرسه لتلامذته مع القديم وهو على منهجه في النحو وأصوله في مجال الاستشهاد لكنه لم يستطع الابتعاد عن واقع الشعر، مثال ذلك أن ابن المعتز أشار إلى أنه شرح له قصيدة لأبي نواس(36)، كما أكثر من تحليل النصوص المحدثة في كتبه: الكامل، والفاضل، والتعازي و المراثي، وكتب في مقدمة كتابه (الكامل) وهي مقدمة موجزة جدا، أنه لا يتحيز لعهد دون عهد، ولا لشاعر دون شاعر، وإنما يختار ما يقع في حفظه (من خطبة شريفة، ورسالة بليغة) (37 (، فليس يعنيه لأي خطيب اختار ولا لأي كاتب انتخب، وإنما الذي يعنيه أن تكون الخطبة شريفة والرسالة بليغة، ثم يصرح عن رأيه بعد قليل: «وليس لقدم عهد يفضل القائل، ولا لحدثان عهد يهتضم المصيب، ولكن يعطي كل ما يستحق)« (38، وقال في موضع آخر: «قال بعض المحدثين وليس بناقصه حظه من الصواب أنه محدث »(39. (

ثانيهما: أنه أدخل الشعر المحدث في مصنفاته بل قصر عليه كتابا مستقلا وهو كتاب الروضة، ذكر في كتاب ياقوت(40)، وقال عنه ابن الأثير أنه: «كتاب جمعه و اختار فيه أشعار شعراء عصره بدأ فيه بأبي نواس ثم بمن كان في زمانه وانسحب على ذيله »(41.(

وهكذا شارك المبرّد في توجيه نظر النقاد والقراء إلى مبدأ الإجادة، وإلى أن مبدأ القدم ليس كافيا بذاته، بل مدار التقييم هو النص دون أي اعتبار للزمن الذي كتب فيه أو لكاتبه «وقد أدى أخذه بهذا المبدأ إلى أن يلاحظ العصرية وأهميتها من حيث أنها تكشف عن أذواق الناس واهتماماتهم وإلى أنها بالتالي تضمن قيمة شعرية لا يجوز إهمالها، وبهذه النظرة كان يختار أشعار المحدثين أو المولدين مسوغا اختباره بأنها «حكيمة مستحسنة يحتاج إليها للتمثل، لأنها أشكل للدهر»(42) ، أي لأنها أكثر التصاقا بالحياة وتعبيرا عنها من الشعر القديم، وأضاف «ويستعار من ألفاظها في المخاطبات والخطب والكتب »(43 (، فهو يهدف إلى «غاية عملية وهي خدمة طبقة المتعلمين وخاصة من يهيئون أنفسهم لمستوى بلاغي من فقه الكتاب».(44(

لم يهمل المبرد عصره ليتعلق بالقديم فقط، فهو من اللّغويين الأوائل الذين وقفوا من التطور الشعري موقف القبول(45)، مراعين العصر، لقد كان رأيه في هذا الشعر المعاصر له رأيا لغويا واعيا لأساليب الكلام قابلا تطور الشعر وأساليبه ولغته لارتباط ذلك بتغير العصر، قال في ذلك: «وقصدنا في وقتنا هذا لذكر مراث من أشعار المحدثين لننزل بها من خشونة أشعار القدماء إلى لطف المولدين لمشاكلة الدهر وملاحة القول لنمضي من ذلك شيئا»(46).

وهذا يؤكد أنه كان يفضل الشعر القديم لجزالته وسلاسته، وبما فيه الشاهد في اللغة والنحو، ويفضل الشعر المحدث لعذوبة ألفاظه، وحلاوة معانيه، وشدة ارتباطه.

وقبول المبرد للشعر المحدث لا يعني أنه أغمط القديم حقه بل كان يجله ويقدره، جاء في الكامل حين كان يقارن بين تشبيهات القدماء وتشبيهات المحدثين قوله: «ومن عجيب التشبيه في إفراط غير أنه خرج في كلام جيد وعني به رجل جليل فخرج من باب الاحتمال إلى الاستحسان ثم جعل لجودة ألفاظه وحسن رصفه واستواء نظمه في غاية ما يستحسن »(47) ، قول النابغة يرثي "حصن بن حذيفة"(48:(

يَقُولُ حِصْـنٌ ثُمَّ تَأْبَى نُفُوسُـهُمْ وَكَيْفَ يَحْصُنُ وَالجِبَالُ جنُوحُ
وَلَمْ تَلْفَظِ الموْتَ القُبُورُ وَلَمْ تَزَلْ نُجُومُ السَّمَاءِ وَالأَدِيمُ صَحِيحُ
فَعَمَا قَلِـيلٍ ثم جَـاءَ نَعْيُـهُ فَظَلَّ نَدَى الحَيِّ وَهُوَ يَنُـوحُ

فقد وصف النابغة في هذه الأبيات بالرجل الجليل، ووصف أبياته بالجودة والحسن وهذا التقدير لا يمنحه للمحدثين وإنما يقول: «ثم نذكر طرائف من تشبيه المحدثين وملاحتهم فقد شرطناه في أول الباب»(49 .(و المبرد مع ذلك حاول أن يكون منصفا في نظرته «ولابد أن نعذر المبرد إذا هو مال –لا شعوريا– نحو القديم، لأنه صلب ثقافة نحوي لغوي من طرازه .(50)« كما قال إحسان عباس ولأنه كان بصريا، وذوق البصريين يميل إلى الجزالة والقوة والرصانة.

إن اشتغال المبرد بشعر المحدثين واستحسان الكثير منه عند عمارة بن عقيل الذي قال فيه: «ختمت الفصاحة في شعراء المحدثين بعمارة »(51). ووصف شعره مرة فقال: «ألا ترى كيف يفضل قول عمارة على قرب عهده :

تَبَحَّثْتُمْ سُخْطِي فَغَيَّرَ بَحْـثَـكُمْ نَخِيلَةُ نَفْسٍ كَانَ نُصْحًا ضَمِيرُهَا
وَلَنْ يُلْبِثَ التَحْشِينُ نَفْسًا كَرِيمَةً عَرِيكَتُـهَا أَنْ يَسْتَمِرَّمَرِيـــرُهَـا
وَمَا النَّفْسُ إلا نُطْفَةٌ بِقَـــرَارَةٍ إِذَا لَمْ تُكَدَّر كَان صَفْواً غَدِيرُهَا

فهذا كلام واضح، وقول عذب»(52 (

فهذان مقياسان للشعر المفضل عند المبرد (الوضوح والعذوبة)، ولكن فيه أمرين آخرين، فهو شديد الشبه بالشعر الجاهلي من جهة، ومن جهة أخرى هو شعر حكيم يتفق مع الغرض الذي كان يختار المبرد من أجله أشعار هؤلاء المولدين، وهو يصرح بهذا الغرض، فهي أشعار حكيمة مستحسنة .

وكذا إعجابه بابن مناذر وقوله فيه وفي شعره: « فإنه كان رجلا عالما مقدما وشاعرا مفلقا، وخطيبا مصقعا، وفي دهر قريب، فله في شعره شدة كلام العرب بروايته وأدبه، وحلاوة كلام المحدثين بعصره ومشاهدته، ولا يزال قد رمى في شعره بالمثل السائر، والمعنى اللطيف واللفظ الفخم الجليل، والقول المتسق النبيل » (53.(

واستحسانه شعر أبي نواس خاصة قوله:(54(

لاَ أَذُودَ الطَّيْرَ عَنْ شَجَرٍ قَدْ بَلَوْتُ المرَّ مِنْ ثَمَرِهْ

وتعليقه عليه بقوله: « فمثل هذا لو تقدم لكان في صدور الأمثال»(55.(

واستشهاده بشعر أبي تمام في كثير من مواضع من كتابه الكامل، وتمثله به للمقارنة بغيره أو لنقده يدل على «خبرته بهذا الشعر وتفهمه إياه »(56 (، حتى أنه كان يفضله أحيانا على غيره معللا سبب تفضيله، من ذلك قوله: « وقال ابن أبي عيينة:

مَا رَاحَ يَوْمٌ عَلَى حَيٍّ وَلاَ ابْتَكَرَا إلاَ رَأَى عِبْرَةً فِيهِ إِنْ اعْتَبَرَا

وَلاَ أَتَتْ سَاعَةٌ فِي الدَّهْرِ فَانْصَرَمَتْ حَتَى تُؤْثِرُ فِي قَوْمٍ لَهَا أَثَرَا

إِنَّ اللَّيَالِي وَالأَيَّامَ أَنْفُسَهَا عَنْ غَيْرِ أَنْفُسِهَا لَمْ تَكْتُمِ الخَبَرَا

فأخذ هذا المعنى حبيب بن أوس الطائي وجمعه في ألفاظ يسيرة فقال:

عَمْرِي لَقَدْ نَصَحَ الزَّمَانُ وَإِنَّهُ لَمِنْ العَجَائِبِ نَاصِحٍ لاَ يُشْفِقُ

فزاد بقوله "ناصح لا يشفق" على قول ابن أبي عيينة شيئا طريفا، وهكذا يفعل الحاذق بالكلام» (57)، وهكذا فقد وصف المبرد أبا تمام بالطرافة والحذق في الكلام.

وروى الصولي أن المبرّد كان في مجلس ابن المعتز و« جرى ذكر أبي تمام فلم يوفه حقه وكان في المجلس رجل من الكتاب ... ما رأيت أحفظ لشعر أبي تمام منه فقال له يا أبا العباس ضع في نفسك من شئت من الشعراء ثم انظر أيحسن أن يقول مثل ما قاله أبو تمام، وقرأ أبياتا من قصيدته :شَهِدْتُ لَقَدْ أَقُوتُ مَغَانِيكُمْ بَعْدِي.

فقال أبو العباس المبرد: ما سمعت أحسن من هذا قط ما يهضم هذا الرجل إلا أحد رجلين: إما جاهلا بعلم الشعر ومعرفة الكلام وإما عالم لم يتبحر شعره ولم يسمعه»(58 (

قال ابن المعتز: «وما مات إلا وهو منتقل عن جميع ما كان يقوله مقر بفضل أبي تمام و إحسانه»(59 (

وقال المبرد يصف شعر أبي تمام أن له: «استخراجات لطيفة ومعان طريفة»(60) ، وأنه «غائص يخرج الدرر»(61).

كما روى الصولي قول المبرد عن أبي تمام والبحتري: «والله إن لأبي تمام والبحتري من المحاسن ما لو قيس بأكثر شعر الأوائل ما وجد فيه مثله »(62 (، وفي هذه الشهادة الصادرة عن إمام في العربية والنحو كالمبرّد، «شهادة بتفوق المحدث على القديم»(63.(

كل ذلك لم يؤثر في موقف المبرد اللغوي من الألفاظ وأبنيتها وخصائص فصاحتها ومن الأساليب وصورها، ومن تشدده في القياس.

وبهذا القياس أيضا أخضع شعر المحدثين إلى تحليله وأحكامه على الرغم من قبوله واستحسانه وإدخاله في مصنفاته وشرحه لتلامذته، قال في أبي العتاهية» :كان أبو العتاهية مع اقتداره في قول الشعر وسهولته عليه يكثر عثاره، وتصاب سقطاته، وكان يلحن في شعره، ويركب جميع الأعاريض، وكثيرا ما يركب ما لا يخرج من العروض إذا كان مستقيما في الهاجس، فمما أخطأ فيه قوله :

ولربما سئل البخيل الشيء لا يسوي فتيلا.

لأن الصواب لا يساوي، لأنه من ساواه يساويه» (64).، فقد خطأه في استعمال صيغة الفعل ودلالته.

وكذا خطأ محمد بن يسير في صيغة مصدر ودلالته في قوله:

وَلَوْ قَنِعْتُ أَتَانِي الرِّزْقُ فِي دَعَةٍ إِنَّ القُنُوعَ الغِنَي لاَ كَثْرَةُ المالِ

»لأن القنوع إنما هو السؤال والقانع السائل ... وإذا رضي قيل: قَنِعَ يَقْنَعُ قَنَاعَة فهو قَنِعٌ وقَانِعٌ جميعا» (65.(وفي مجال بنية الكلمة وصيغتها نذكر نزول فصاحة علي بن الجهم عنده وكان يعده من الفصحاء إذ سمعه في مجلس محمد بن عيسى يقول عند انصرافه « إنه بلغني شيء و أظنني مأزور في قعودي "فقال المبرد: نقص في عيني وإنما هو موزور »(66.(

كما عاب على أبي نواس قوله((67:(

كَيْفَ لاَ يُدْنِيكَ مِنْ أَمَلٍ مَنْ رَسُولُ اللهِ مِنْ نَفَرِهْ

»وهو لعمري كلام مستهجن موضوع في غير موضعه، لأن حق رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يضاف إليه، ولا يضاف إلى غيره، ولو اتسع متسع فأجراه في باب الحيلة لخرج على الاحتيال، ولكنه عسر موضوع في غير موضعه، وباب الاحتيال فيه أن تقول: قد يقول القائل من بني هشام لغيره من أفناء قريش: منا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحق هذا أنه من القبيل الذي أنا منه، فقد أضافه إلى نفسه، وكذلك يقول القرشي لسائر

العرب»(68.)

وأنشد قصيدة لأبي شراعة القيسي ثم قال: «وهذه القصيدة لم يأت فيها بمعنى مستغرب وإنما قصدنا فيها الكلام الفصيح والمعاني الواضحة فهي وإن لم تكن كقول أبي نواس(69:(

أَمَامَ خَمِيسٍ أُرْجُوَانٍ كَأَنَّهُ قَمِيصٌ مُحَرَّكٌ مِنْ قَنَا وَجِيَادٍ

فَمَا هُوَ إِلاَّ الدَّهْرُ يَأْتِي بِصَرْفِهِ عَلَى كُلِّ مَنْ يَشْقَى بِهِ وَيُعَادِي

في البراعة و النقاء وحسن الرصف واستقامة المعنى، فليست في السقوط كقوله:

وَأَحَفْتَ أَهْلَ الشِّرْكِ حَتَّى أَنَّهُ لَتَخَافُكَ النُّطَفُ التِي لَمْ تُخْلَقِ

وإن لم يكن كقول الطائي(70:(

إِذَا افْتَخَرَتْ يَوْمًا تَمِيمٌ بِقَوْسِهَا حِفَاظاً عَلَى مَا وَطَّدَتْ مِنْ مناسب

فَأَنْتُم بِذِي قَارٍ أَمَالَتْ سُيُوفُكم عروش الذين استرهنوا قوس حاجب

في صحة المعنى وحسن الاستنباط ولطافة الغوص فليس كقوله(71:(

تُثَفِىَّ الحَرْبُ مِنْهُ حِينَ تَغْلِي مَرَاجِلُهَا بِشَيْطَانٍ رَجِيمِ

فجعل الممدوح هو الشيطان:

وإنما ذكرنا اثنين قد أومئ إلى كل واحد منهما في وقته وأغرق في وصفه لتعلم ما في المخلوقين من النقص وأن لكل واحد المذهب والمذهبين ونحو ذلكثم يجتذبه ما فيه من الضعف لتعرف مواقع الاختيار وموضع المطلوب من قول كل قائل، إما لفصاحة وإما لإعراب في معنى وإما لسوق لطيف تبين فيه حذقه وما أشبهه متبع مطلوب به « 72)).

و خلاصة البحث إنّ المبرّد كان يتنازعه منهجان متداخلان و متوازيان في دراسته للشعر العربي، منهج نحوي يغلب عليه القياس حتى أنه كان يخطئ الاستعمال الذي يخرج عن الأصول إلى درجة أنه يغير في رواية الشعر. و منهج نقدي بلاغي يدل على أن المبرّد يمتلك ذوقا أدبيا رفيعا.

الهوامش:

(1)ينظر أنباه الرواة على أنباه النحاة ، جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي ، القاهرة، ط1، 1406هـ/1976م: 3/242.

(2)ينظر أخبار أبي تمام، أبو بكر الصولي، تحقيق عساكر – عزام – نظير الإسلام ، التأليف والترجمة القاهرة ، 1937م: ص202 .

-(3)المقتضب، أبي العباس بن يزيد المبرّد ، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب ، بيروت 3 / 36 وما بعدها .

-(4)المصدر نفسه: 81/2 وما بعدها

-(5)المصدر نفسه: 1 /31 .

(6)الكتاب، سيبويه أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط1: 2/297.

(7)ديوان امرئ القيس، دار صادر، بيروت، ط1: ص149.

(8)الخصائص، ابن جني، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، 1371ه/1956م: 1/75.

-(9)الكامل، أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد، عارضه بأصوله وعلق عليه :محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر للطبع والنشر، 1 /55. ينظر المبرّد :مقدمة المقتضب،1/ 106 .

-(10)المقتضب: 1/ 107(.

-(11)المصدر نفسه: 2 /179 .

- (12)المصدر نفسه: 144/3 .

-(13)المصدر نفسه: 145/3 .

-(14)ينظر المصدر نفسه: 1 /32-33.

-(15)المصدر نفسه: 150/2، ينظر ديوان جرير: ، دار بيروت للطباعة و النشر، بيروت، 1406ه.1986م، والبيت يمدح فيه عمر بن عبد العزيز .

-(16)المقتضب: 2 /150، (الهامش رقم2 .(

-(17)المصدر نفسه: 2/ 150، (الهامش رقم2 (

(18)الخصائص: 1/357.

(19)الكامل: ص34.

(20)المقتضب: 1/14، 3/354.

(21)المقتضب: 3/354.

(22)ينظر المقتضب: 1/101-103.

(23)ينظر الموشح، المرزباني، تحقيق البجاوي ، دار النهضة ، مصر، 1965: ص198-199.

24) الخصائص: 1/396.

(25)أبو العباس المبرّد وأثره في علوم العربية، عضيمة محمد عبد الخالق، مكتبة الرشد، الرياض، ط5/ 1405هـ: ص70.

26) الخصائص: 1/75.

(27)المقتضب، مقدمة المحقق: 1/159.

28) أبو العباس المبرّد وأثره في علوم العربية : ص69.

-(29)سرّ صناعة الإعراب، أبو الفتح عثمان ابن جنّي، تحقيق: محمد حسن إسماعيل، وأحمد رشدي شحاتة عامر، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط14211 /هـ- 2000: 1 / 1

-(30)المقتضب: 2 / 119- 123

(31)ينظر تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس، دار الشروق للنشر والتوزيع مصر، ط3، 2001م: ص95.

32) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، نشر دار الثقافة، بيروت، 1964م: ص02.

(33)المصدر نفسه: ص02.

34)أخبار أبي تمام، ، أبو بكر الصولي، تحقيق عساكر عزام نظير الإسلام، التأليف والترجمة، القاهرة، 1937م: 10/7

35)ينظر العقد الفريد، ابن عبد ربه، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1962: 168/3م.

36)طبقات الشعراء، ابن المعتز، ، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بمصر: ص197-200.

37) الكامل :المقدمة.

(38)المصدر نفسه: 29/1.

(39)المصدر نفسه: 29/1.

40)معجم الأدباء ، ياقوت الحموي، دار المأمون طبعة إحياء التراث العربي:19 /121

41)المثل السائر، ابن الأثير، تحقيق الحوفي طبانة، مكتبة نهضة مصر،1959م :13/2.

42) الكامل: 3/2 .

43) الكامل: 3/2 .

(44)الثابت والمتحول، أدونيس، دار العودة بيروت، ط3، 1980م. 2/173 :

(45)ينظر الثابت والمتحول، أدونيس: 153/2.

(46)التعازي والمرائي، المبرد تحقيق الديباجي، مطبعة زيد بن ثابت، بيروت، 1975م: ص 152

(47)الكامل: 129/3.

(48)ديوان النابغة الذبياني، الأبيات لم أحبها في الديوان.

(49)الكامل: 2/ 101.

(50)تاريخ النقد الأدبي عند العرب: ص79.

(51)الأغاني: 183/20.

(52)الكامل: 29/1.

(53)الكامل: 61/4.

(54)ديوان أبي نواس، مطبعة جمعية الفنون، 1201هـ: ص 10

(55)الكامل: 17/2

(56)الثابت و المتحول: 181/2.

(57)الكامل: ص14/2

(58)أخبار أبي تمام: ص202.

(59)المصدر نفسه: ص203.

(60)المصدر نفسه: ص96.

(61)المصدر نفسه: ص97.

(62)المصدر نفسه: ص97.

(63)الثابت والمتحول: 181/2.

(64)الموشح: ص 405-406.

(65)المصدر نفسه: ص457.

(66)المصدر نفسه: ص528.

(67)ديوان أبي نواس: ص11.

(68)الكامل: 17/2.

(69)ديوان أبي نواس: ص16

(70)شرح ديوان أبي تمام، الخطيب التبريزي، قدمه ووضع هوامشه و فهاريه راجي الأسمر العربي، دار الكتاب: ص115، والبيتين يلفظهما وتمامهما: إذا افتخرت يوما تميم بقولها :وزادت على ما وطدت من مناقب فأنتم بدي قار مالت سيوفكم عروش الذين استرهنوا قوس حاجب.

(70)نفسه: 78/2.

(71)نفسه: 78/2.

(72)الموشح: ص 220.